القديسان مكسيموس ودوماديوس

القديسان مكسيموس ودوماديوس

عن المخطوطة القبطية الصعيدية نشرت فى :

Bulletin de la Société d'Archéologie Copte 1916

وعن المخطوطة القبطية البحرية لناشرها :

E. Amélineau — Histoire des Monastéres de la Basse Egypte

الحقـــوق محفوظة

١٩٧٧

يوسف حبيب

مقدمة

من نعم الرب يسوع أن أبقى لنا أنفس الآثار عن قديسى الكنيسة ، ومن بين الكنوز والآثار الخالدة وما احتوته من النفحات القدسية بين هذه السير ، سيرة السكوكيين اللامعين القديسين العظيمين مكسيموس ودوماديوس ، وهى مستقاة من مصادرها الأولى التى تمثل أنفس تراث عبر القرون الطويلة الماضية ، وتمثل ناحية هامة فى تاريخ المسيحية .

كتب السيرة شماس كنيسة البراموس الراهب بيشوى من قديسى القرن الرابع وهو شماس الكنيسة التى بناهـــا القديس مكاريوس الكبير نفسه ، وهى أول كنيسة فى الإسقيط .

نشر النص القبطى (بالبحيرية) لسيرة العلامة :

B. Amélineau - Histoire des Monastères de la Basse Egypte.

وبترتيب من الرب المتحنن ، لدى مراجعة مجموعات المجلة القبطية الأثرية بجمعية الآثار بالقاهرة وجدنا نصاً بالقبطية الصعيدية لنشر فى :

Bulletin de la Société d'Archéologie Copte 1916

فقمنا بترجمة هذه السيرة العطرة ، هذه السيرة التى تبين كيف كان تمسك هذين الشابين بالفضائل المسيحية والسيرة الملائكية وحياة القداسة والعفة .

القديسان هما إبنا ملك الروم فالنتينوس (٣٦٤ - ٣٧٥)م. تركا عظمة الملك والجاه ووفرة الغنى وكثرة المال والكرامة وعمدا إلى سكنى البرارى والقفار. تتلمذا أولا للقديس أغابيوس بالشام وقبل نياحته أوصاهما بالانتقال إلى القديس مكاريوس الـــكبير (٣٠٠ - ٣٩٠م) ، فتتلمذا على يديه ، ومع أنهما لم يمكثا طويلا إذ تنيحـــا وهما شابان إلا أن سيرتهما تعطينا صورة وضاءة عن التربية المقدسة . وكانا أول من تنيح ببرية شيهيت بإسقيط القديس مكاريوس، فالقديس مكسيموس تنيح فى ١٤ طوبة أما الثانى فقد تنيح فى ١٧ طوبة ، وبنى على إسميهما أول دير بالبرية (دير برموس) .

مما يحق من أعاظم أبناء القديس مكاريوس الكبير حتى أنه كان شخصياً معجباً بسيرتهما الملائكية . يستصحب بعض زائريه لزيارة مغارتيهما ويميزهما بالشهيدين . وقد جاء فى قوله المأثور هذه العبارة «طوبى للذاهبين مكان شهادة الغرباء الصغار» كان يدعوهما شهداء لأنهما كان أجل شهدين حقاً باختيارهما

دون سفك دم اتركهما ملك أبيهما وثروات العالم وتكبدهما المشاق والشدائد والضيقات إذ فضلا عنها سلوك طريق النسك والطهارة والتقشف من أجل عظم محبتهما لذلك الحقيقي يسوع المسيح .

ما أجمل سيرة هذين الشابين الطاهرين القديسين .

ما أجمل عفتهما وهي تزدهر في جسديهما المقدس فينتشر شذى الطهارة والقداسة وما إليها من البركات .

ما أبهى تخشع الشباب الطاهر الوديع المتمثل فيهما ، وكأننا نراهما يسجدان لله كل حين رافعين أيادي طاهرة وقت الصلاة وهما يقدمان الذبائح الكريمة . تنال شرف القبول .

ما أجمل الظهور المتفتحة للعفة . وما أزكى ما ينتشر من رائحة البخور الروحي المقدس التي يسر بها الروح القدس .

نرى ذلك في هذه السيرة وهي نافعة للكل ولشبابنا في هذا العصر ألزم وأكثر نفعاً .

سمعنا يرجاء وشيوخ قديسين ودائماً نشيد بذكراهم فكم يكون الوقع الحسن إذ نسمع بشابين قويين من أولاد الملوك يزهدان في المملكة وضخامة الأموال وعيشة الترف والغنى ويفضلان حياة التقشف والنسك والعفة والطهارة .

حقاً لقد ضرب هذان القديسان أروع مثال لكل الأجيال في البذل والتضحية لأجل عظم محبتهما في الملك المسيح . ولأجل هذا كان مركزهما متألقاً وعظيماً وممتازاً عن سائر القديسين لأن من يترك ملذات العالم وهو لم يزل بعد شاباً ليس كمن يترك العالم بعد أن تقدمت به السنون . ومن يترك عظمة المملكة ليس كالذي يترك القليل في هذا العالم .

ويرى الشباب فيهما بلاشك خير قدوة وأفضل مثال يقتدي به في السلوك بخوف أمام الله وفي محبة العفة والطهارة - والطوبى لمن حذا حذوهما قدر استطاعته .

كما أنهما يقدمان درساً نافعاً لحياتنا العائلية إذ يندر أن يجتمع الإخوة معاً في إجتماعات للصلاة أو حلقات لدراسة الكتب المقدسة .

وبالنسبة للرهبنة فإنهما يظهران شرفها الجزيل وكيف كانت أديرة الرهبان معاهد ممتازة للتدريب على القداسة يتخرج فيها فطاحل القديسين الممتازين وأقطاب العلوم الدينية . فقد انخرط في سلك الرهبنة الجزيل الشرف القديس أرسانيوس معلم أولاد الملوك . والقديس كيرلس الكبير عمود الدين الذي تتلمذ سبع سنوات لدى القديس سيرابيون الحكيم بمغارة القديس مكاريوس .

فلم تكن الرهبنة فراراً من ضيق الحياة و الاضطهادات والشدائد والأتعاب أو لتتعطل يتخذها ملجأ وملاذاً . لكن على النقيض من ذلك كانت منتشرة فى زمن الحرية المسيحية فقد آثر الذين فاتهم الإستشهاد فى عصر الإضطهاد أن يقدموا ذواتهم ذبائح حية مقدسة للمسيح بالرهبنة . فيموتون عن العالم فلا يكون له مكاناً فيهم. إذ قد أماتوا أهواء القلب والفكر . كما تموت حبة الحنطة المدفونة فى أعماق الأرض لتأخذ حياة جديدة مثمرة : هذه هى محبة المسيح الحقيقية الباذلة المضحية تعلو بالنفس إلى هذا المقدار وتسمو بها عن المادة والضلال.

أن الكنيسة القبطية تكرم هذين القديسين فتذكرهما فى بجمع القداس وبجمع التسبحة وتقول « وسيدى الأبوين القديسين مكسيموس ودوماديوس » . وقد جرى ذكرهما على كل لسان ولم تخل جماعة من المؤمنين فى كل عصر من معرفة عظيم منزلتهما فى القديسين والاستظلال بوارف بركاتهما صلواتهما تكون معنا آمين .

يوسف حبيب

الفصل الأول

حياتهما الأولى ورهبنتهما بالشام

١ — الاهتمام بالتربية العائليـــة

ساد فى عصر الملك فالنتينوس ابن الملك يوفيانوس عابد الإله الذى هدم هياكل الأصنام النجسة ، سلام عظيم لكل كنائس الله فى المسكونة ، وقد ربى أولاده مكسيموس ودوماديوس وأختهما الصغيرة تربية حسنة فى مخافة الله بكل تعليم صالح .

٢ — ذهابهما الى بيقية

ولما كبر مكسيموس ودوماديوس المباركان وتقـــدما فى الأعمال الصالحة اشتاقا لحياة الرهبنة المقدسة وتشاورا الواحد مع الآخر قائلا . « كيف يمكننا الهروب حتى نصير رهباناً؟ » ، وقال أصغرهما الأكبر : « لنعتذر إلى أبينا ونقول إننا ذاهبان إلى بيقيـــة لنصلى فى موضع آبائنا القديسين الأساقفة ، فان أذن لنا نذهب إلى المكان الذى نريد الذهاب اليه » ، أطاعنا أباهما على ما عزما وسمح لهما وكان يسكن فى بيقية قديس راهب يدعى حنا ، يحضر إليه الكثيرون لإستشارته ، فأعلموه برغبتهما فى

الرهبنة، ولما رأى إستقامة إختيارها فرح فرحاً عظيماً وشجعهما وقد طلبا منه أن يبقيا معه ولكنه أعتذر وأوصاهما بالسفر إلى سوريا ليتتلمذا على يدى القديس المتوحد أغابيوس. وهو طرسوسى من كيليكية، وكانت شهرته قد ملأت بقاع سوريا وفلسطين .

٣ — ذهابهما إلى سوريا مع القديس أغابيوس

لم يرجع القديسان إلى بلدهما ليخبرا أهلهما بل ذهبا رأساً إلى سوريا، واستدلا على القديس أغابيوس فأخبرا بمكانه فتتلمذا له وألبسهما إسكيم الرهبنة السورى .

ولما قرب زمان نياحة الشيخ القديس أغابيوس سألاه قائلين « قل لنا كلمة يا أبانا القديس حتى نحيا بها بعدك »، أما هو فقال: « رأيت راهباً واقفاً أمامى وعلى رأسه غطاء عليه صليبان، وكان فى يده عصا من جريد وصليب ولما رأيته خفت ولكنه أقترب منى وسلم على وقال لى : « هل تعرفنى » ؟ فقلت له : « لا يا أبى القديس ». فقال لى : « أنا مكاريوس المصرى أتيت لأدعو أولادك لأخذهم إلى مصر، فقلت له : « ألا تأخذنى معهم أيضا يا أبى، فقال لى : « لا ولكنى أعلمك أنه بعد ثلاثة أيام سوف

تتنيح وتذهب إلى السيد، وسيرسل الملك رسلا وراءك ولديه ليأخذهما إلى القسطنطينية فاحذر ذلك وأمرهما أن ينزلا إلى مصر ليسكنا بالقرب منى، لأن السيد قد عينهما لى أولاداً، وها أنا قد قلت لك، ولما قال ذلك إختفى عنى .

وقد أوصاهما القديس ان ينتلـــذا للقديس مكاريوس الكبير - وتنيح بسلام بعد أن سكن القديسان معه ستة أعوام.

+ + +

الفصل الثانى

التعرف عليهما فى القسطنطينية

كان تاجر من انطاكية يتردد على هذين الطوباويين طلباً لبركتهما ولأخذ اشغالهما اليدوية فقد كانا يصنعان حبالا ، ولثقة التاجر فيهما كتب اسميهما على الحبال بهيئة صليب وسط شراع السفينة ، وكانت هناك سفينة محملة بالبضائع لبيعها بالقسطنطينية ، وبينما كان نائب الملك واقفاً مع الجند يفتش السفن الداخلة إلى الميناء ، التفت فوجد شراع السفينة ملقى على الأرض والبحارة يصلحونه كعادتهم ووجد اسمى القديسين مكسيموس ودوماديوس مكتوباً على الحبال فوق الشراع. فلما قرأ الاسمين أمر باحضار البحارة وسألهم عنهما ، فأجابوه انهما اسما رجلى الله القديسين الساكنين فى بلدنا ، مكسيموس ودوماديوس ، فقال لهما نائب الملك : « أهذه السفينة لهما ؟ » ، قالوا له : « لا ، ولكننا كتبنا اسميهما على شراعنا بسبب صلواتهما المقدسة حتى نجد العون وسفينتنا تبحر » .

فاستعلم منهم عن مكانهما بسوريا وأين يقيمان ، وأمر

النائب أن يؤتى بالبحارة إلى الملك ، أما هو فقد سبقهم ليخبر الملك بالأمر .

وكان الملك يدعى ثيؤدوسيوس ، وإذ ترك هذان القديسان العالم فى حياة فالنتينوس أبيهما منذ عام تقريباً ، فحينما تنيح أبوهما عين ثيؤدوسيوس وكان رئيساً لجنود الملك فالنتينوس بدله .

أمر الملك بأن يعطى كل بحار ثلاث قطع ذهبية وصرفهم بسلام ، وأرسل مندوباً من قبله اسمه « ماركيلوس » إلى سوريا حتى يتأكد الخبر قبل إذاعته فى القصر . وبعد بضعة أيام عاد المندوب مؤكداً الخبر ، وكان فرح عظيم فى القصر فى هذا اليوم ، سافرت أمهما وأختهما لزيارتهما ، ومنذ ذلك اليوم كان أهالى القسطنطينية يذهبون إلى هذين القديسين فى سوريا لنيل بركتهما ، وفى طليعة الذين أسرعوا بالسفر إليهما ، الملك ثيؤدوسيوس وأولاده أركاديوس وأونوريوس اللذان تربيا فى مثل هذه التقوى .

ولما تنيح بطريرك القسطنطينية أختير القديس مكسيموس بدله وفرح الملك ثيؤدوسيوس كثيراً لهذا وأرسل فوراً نائبه

وخمسة وعشرين جندياً لاستدعائه ، كما كتب إلى حاكم سوريا لإحضار القديسين إلى أن يجتمع أساقفة الإيبارشيات .

ولما علم القديسان بذلك - من قبل زوجة الحاكم التي كانت تثق فيهما - أسرعا في الهروب وفي طريقهما وجدا راعياً عجوزا يسكن في كوخ في مكان قفر فاختبئا عنده ، ولما لم يحضرا ذهب نائب الملك والذين معه باحثين عن القديسين فلم يجداهما، فأمر الحاكم أن يبحث عنهما بمثابرة في كل سوريا وفلسطين ، وظل القديسان مختبئين أياما كثيرة . ولم يظهرا البتة .

الفصل الثالث

انطلاقهما الى شيهيت

بعد ذلك قام الطوباويان حسب مشورة الله وخلعا ثياب الرهبان ووضعاها في أكياس ولبسا ثياباً مدنية وربطا رأسيهما بالغائف حتى لا يعرفهما أحد ، وكانا يصليان وهما سائران قائلين « يا إله أبانا أبينا مقاريوس ليتك تهدينا وتقودنا إليه بسلام».

سارا على شاطئ البحر نحواً من تسعة أيام حتى أعياهما التعب، والآلام التي تحملاها بالسير فوق الصخور كانت مبرحة، ولم يكونا يعلمان أن يذهبان لكن فرح قلبيهما بالمسيح خفف عنهما كل هذه الضيقات . ثم سارا خمسة أيام أخرى وبعدهما رقدا على صخرة مرتفعة ولم يستطيعا الحركة ، وقد استنفد جهدهما بسبب الجوع والعطش والعناء حتى أنهما لم يستطيعا مواصلة السير ، لكن رحمة الرب أدركتهما ونقلتهما إلى صخرة شيهيت فقد قالا :

قمنا في الصباح بالقوة التي وهبنا المسيح إياها ووجدنا أنفسنا على صخرة شيهيت ، ولما نظرنا إلى الجبل رأينا وادي

الماء وبعض شجر النخيل مزروعة وكل ما فى الجبل، فتعجبنا وكانت قلوبنا منذهلة بما حدث لنا إذ كنا فى المساء مضطجعين بين الموت والحياة لانسمع إلا هدير الأمواج ولكننا اليوم عندنا ثقة وقد تقوينا وانتا فى هدوء. إنا نرى نخلا وآبار ماء ومناظر أخرى عجيبة ».

وما أن نزلا من الصخرة حتى شاهدا رجلا يقود الإبل فى الوادى والتقيا به فأعطاهما طعاماً وماء وقادهما إلى مكان مكاريوس الكبير.

الفصل الرابع

مقابلتهما القديس مكاريوس الكبير ورهبنتهما

روى القديس مكاريوس الكبير عن هذين الشابين.

« بينما كنت ساكناً فى الإسقيط إنحدر إلى هناك شابان غريبان، كانت لأحدهما لحية من شعرات قليلة، والآخر بدأت لحيته تنبت، أتى هذان الشابان وقالا لى: « أين فلاية الأب مكاريوس؟ »، قلت لهما: وماذا تريدان منه؟ »، قالا: « لقد سمعنا عن حياته وأعماله وأتينا لنراه ». ولما قلت إنى أنا هو صنعا لى مطانية وقالا لى: « نريد أن نسكن ههنا »، وإذ رأيتهما مترفين من الغنى قلت لهما: « لن تطيقا أن تسكنا ههنا »، فقال لى الأكبر: « إذا لم نستطع إلى ذلك سبيلا نمضى إلى موضع آخر، فقلت لهما وماذا أصابكما حتى تطلبا العيش سيدفعهما إلى الفرار؟ »، فقلت لهما « هلما فاصنعا لكما فلاية إن استطعتما »، سألانى « حسبك أن تريحنا لنشرع فى العمل وإنا لفاعلون »، فأعطيتهما فأساً وأداة لحفر الأرض رفقية من الخبز وملحاً، وأريتهما صخرة ينحتانها وقلت لهما: إنحتا الصخر واحفرا

خشباً من الغابة وأقيا سقفاً واسكنا . وكفت أخاهما سيعمدان إلى الفرار فى الحال . سألانى عن العمل فقلت لهما « انه ضفر الخوص » ، ثم جمعت بعض السعف من الغيضة ورأيتهما كيف يبدأ العمل لصنع المقاطف وقلت لهما « إدفعاها إلى الحارس وهو يعطيكما خبزاً » .

ومن تلك الساعة تركتهما وكل ما قلت لهما عنه عملاه بحرص عظيم ومهارة . وبقيا هناك ثلاث سنوات ولم يأتيا إلى أبداً . فبقيت اسأل نفسى قائلا : « ماتدبيرهما حتى انهما لم يأتيا إلى أبداً ليسألانى عن شىء والناس يأتون إلى من كل فج ، أما هذان الغريبان فلم يجيئانى إلى ولم يذهبا الى مكان آخر الا الى الكنيسة لتناول القربان فقط كل يوم أحد وهما صامتان » .

فصليت الى الله وصمت أسبوعا كاملا حتى يكشف لى عنهما ،

ثم قمت مباشرة وذهبت إليهما لأرى كيف كان حالهما . ولما قرعت الباب فتحا لى وسلما على وظل يحتفظان بصمتهما . فصليت وجلست ، عند ذلك أومأ الأكبر للاصغر فخرج ، أما هو فجلس يضفر الحبال ولم يقل شيئاً . وفى وقت الساعة التاسعة قرع الباب فأتى الأصغر وأومأ إليه فذهب وطهى قليلا من الطعام ، ثم أشار إليه فأعد مائدة ووضع عليها ثلاث خبزات ، وانتحى

جانباً فى صمت فقلت . « قم ما لنأكل » فاقتربا وأكلا ، فأحضر أحدهما جرة ماء فشربنا . ولما حان المساء سألانى هل سأنصرف فقلت : « لا بل أقضى الليل هنا » نفرشا لى على جانب حصير ، من ألياف النخل ، وألقيا بأنفسهما على الأرض العراء فى الجانب الآخر من الغلاية .

فصليت إلى الله أن يكشف لى عنهما ، فانفتح السقف وسار المكان منيراً كما لو كان الوقت نهاراً ولكنهما لم يريا هذا النور . وإذ ظننا إنى نائم نهض الأكبر ونهضا ومنطقا حقويهما ورفعا أيديهما إلى السماء وكنت أراهما وهما لا يعرفان أنه بالإمكان رؤيتهما . وأبصرت الشياطين تحوم حول الشاب الأصغر كالذباب ، وكان بعضها يريد أن يستقر على عينيه ، والبعض على فمه ، ولكن ملاك الرب كان يدور حوله ويطرد الشياطين عنه بسيف من نار . أما الشاب الأكبر فلم تجرؤ الشياطين على الاقتراب منه . وقبيل الصباح انطرح الشابان على الأرض فتظاهرت بأنى استيقظت نوماً من النوم ، وهما يدورهما تظاهرا كذلك . وقال لى الأكبر : « أتشاء أن تتلو إثنى عشر مزموراً فقط ؟ » قلت « نعم » ، فتلا الأصغر خمسة مزامير ومع كل ستة « استيخولات » هللويا واحدة ، ومع كل

، استيخون ، كان يتلوه كان يخرج من فمه مصباح من نار يصعد إلى السماء وعندما وقف الأكبر وتلا المزامير بدا حبل من نار يخرج من فمه صاعداً الى السماء. فما كان لى إلا أن أتلو المزامير رويداً رويداً وخرجت وأنا اسألهما أن يصليا من أجلى ...

وقد طلبـــا منى أن أعطيهما الإسكيم فوافقت على طلبهما وألبستهما إياه وتركتهما فى سلام بعد أن رأيت حالهما وعملهما الحسن وما هما عليه من الغيرة لله .

† † †

الفصل الخامس

معجزات القديسين مكسيموس ودوماديوس

ذاع صيت القديسين ومنحهما الرب مواهب شفاء المرضى وإخراج الشياطين ، وليس فى بقاع فلسطين فحسب لكن فى برية شيهيت ونأتى بذكر بعضها :

أولا ـ المعجزات فى بقاع فلسطين

١ ـ اخراج روح شرير :

أحضروا ذات مرة للقديسين مكسيموس ودوماديوس رجلا ، من عسقلان بفلسطين، به روح شرير ، وإذ كان بعيداً عن مسكن هذين القديسين صرخ بصوت عظيم قائلا : ما أشد قوتك يامقاريوس رجل مصر المتوحد. لقد تركنا لك صحارى مصر فجئت أيضا هنا. إن صلواتك تعذبنا هنا أيضا لأنك تعين هذين الروميين ، ولما قال هذا خرج الروح النجس من الرجل، وكل من علم بهذا مجد الله .

٢ ـ سلطانهما على التنين :

كان فى الطريق الذى يؤدى إلى إيقوليون مغارة جبلية بها تنين عظيم ، وكان يهلك كثيرين ممن كانوا يسلكون هذا الطريق

فلما رأى السكان هذه الخسارة ذهبوا إلى هذين القديسين وأخبروهما بما أفسده الوحش الشرير هناك ، حينئذ كتب الطوباوى مكسيموس خطاباً صغيراً قائلا : وباسم رب الصباؤوت إله أنبا مقاريوس وأنبا أغابيوس ، إذا حمل هذا الخطاب الصغير عند مدخل حفرتك ياتنين فأخرج وأنت مغلق الفم وأرقد وسط الطريق ولا تتحرك من هذا المكان حتى تأكل لحمك طيور السماء » .

ولما أخذوا هذا الخطاب أعطوه لرجل كان راكباً جواداً فذهب ووضع الخطاب عند مدخل مغارة الوحش والوقت قد هاربا .

٣ ــ شفاء الأبرص :

جاء رجل من لستره مصاباً بالبرص ، بعد أن سمع بالعجوبة قتل التنين ، وبصلاة القديسين انعم الرب عليه بالشفاء .

٤ ــ شفاء القس زكريا :

كان أيضا فى « جباله » بلد الجباليين قسيس اسمه زكريا يصنع آيات وعجائب بواسطة الشياطين حتى انه كان يضل كثيرين ، ولما رأى أسقف « جباله » الفساد الذى دب فى إيبارشيته أخذ معه قسيسين آخرين وذهب إلى هذين القديسين وأخبرهما بكل

ما حدث . فطلبا إحضاره وأجاب الأسقف أنه لا يسمح لقول ، فأخذ القديس مكسيموس ورقة وكتب ما يلى :

« أنا الضعيف مكسيموس خادم المسيح أكتب بيدى بقوة رب الصباؤوت ... أكتب إلى زكريا إذا كان تعليم الرسل هو مافاتله ، إذاً فاسلك فى طريقك ، وإذا كان تعليم الشياطين باسم يسوع كلمة الله الحق بأن يقوم ويعذبك ، ليعلم الجميع الباطل الذى أنت فيه ... » وأعطى الورقة للأسقف .

بالهذه الأعجوبة التى حدثت فى ذلك الوقت الذى فيه أعطى الأسقف الرسالة للقس ، فإن الشيطان الذى كان يفسد النفوس لم يدعه يقرأ الخطاب لكن لساعته وثب عليه وطرحه أرضاً وعذبه وكان يصرخ وينبح مثل الكلب حتى اجتمعت مدينة جباله حوله ليروه وتعجبوا للذى حدث لذاك الذى كان يجسد نفسه منذ لحظات قليلة ، وقد ظل يقاسى هذا العذاب مدة ثمانية عشر يوماً . حينئذ أحضروه إلى هذين القديسين وصليا من أجله والحال برىء من مرضه ـ ومكث بالقرب منهما مدة ثلاثة أيام علماه فيها طريق الخلاص وانصرف بسلام .

٥ ــ شفاء قسيس سلفكية ايزوريه :

كان فى سلفكية ايزوريه قسيس يصنع أعمالا نجسه ويذهب إلا هيكل الله يقف أمام المذبح فضربه الرب بالسرطان فكان يأكل لحمه ، وكان يئن نهاراً وليلا ويبكى معترفا بخطيته . وكانت حالته محزنة جداً فحمله البعض وأتوا به إلى القديسين فأخبرهما بقصته وبأنه تائب ويطلب رحمة الرب ، وبصلواتهما أنعم الرب له بالشفاء .

٦ ــ ايمان فلاسفة اثينا :

وسمع اثنان من الفلاسفة الوثنيين فى أثينا بمعجزات الشفاء التى حدثت بقوة المسيح يسوع بواسطة القديسين فكانا يقولان : « من هما هذان اللذان يقال عنهما أنهما يطردان الشياطين من الناس حينما يصليان عليهم باسم المسيح ؟ هل هما آلهة الوثنيين؟ » .

فقام هذان الوثنيان بمكر وخبث وأرادا أن يجربا القديسين فغمضا ايديهما وربطاها بأشرطة كالبرص واغمضا اعينهما مثل العميان قائلين فى أنفسهما هكذا : « هيا انهما العميان يطردان الشياطين فسوف يعلمان ما قد صنعناه » ، واخذا معهما رجلا آخر كأنه كان يقودهما فى الطريق ، ولما وصلا إلى حيث يسكن القديسان ، قرعا الباب فى غير حياء . فأجاب القديس

دوماديوس قائلا : « ماذا تريدان فى هذا المكان ؟ » ، فقالا : جئنا إليكما يا قديسى الله لنطلب إليكما حتى تدركنا مراحم الرب وتصليا علينا فنشفى لأننا أبرصان ، أقطعان وأعميان ، فقال لهما القديس دوماديوس ببساطة « ليكن لكما كما أردتما » ، والحال اصبحا أبرصين واعميين وانكشت ايديهما واصبحتا اقطعين لكنهما الوقت صرخا بصوت عظيم قائلين : « يا رجل الله إرحمنا لأننا جئنا إلى هذا المكان لنجربك » .

وفى الحال إنطرحا على وجهيهما عند اقدام القديسين بايمان عظيم قائلين : « نسألكما الشفقة علينا وإعادتنا فسوف نصبح مسيحيين من اليوم ، وسوف نكون خادمين للمسيح » ، فسألهما القديس مكسيموس « هل تؤمنان أن يسوع هو ابن الله ؟ » أما هما فقالا « نعم نؤمن من كل قلوبنا » ، ثم ان القديسين صليا من أجلهما وانعم الرب عليهما بالشفاء .

ثانيا ــ المعجزات فى برية شيهيت

من المعجزات التى أجريا فى البرية ما رواه القديس بيشوى عن الرجل الشيخ الذى كان يخدم القديسين ويأخذ عمل أيديهما ليبيعه ، وكان تقياً للغاية وله ثقة عظيمة فيهما . حدث

ذات مرة أن أغتصب أحد الجنود الجمل الذى كان له بعد أن لطمه على خده الأيمن ، ولكن العجوز التقى حول له الآخر فى الحال متمما وصية الإنجيل ، فأعاد الجندى الظالم ضرب الشيخ وفقأ عينه بآلة كانت فى يده ، ولكن الشيخ شكر الله لانه استحق أن تفقأ عينه بسبب وصية الأنجيل .

وحدث ذات مرة حينما كان يحمل الأشغال اليدوية الصغيرة التى لهذين الطوباويين إلى مصر فيعد لهما القليل من الخبز حسب عادته.. هذا الرجل ويدعى باتون كان قروياً من « جيرومينيسين » وهى قرية فى محافظة البحيرة تسمى الآن شيرامينيسين تابعة لإقليم « أوبساط » وتسمى حالياً « خربتا » ، وعندما صنع القليل من الخبز الذى كان مطلوبا لهذين القديسين حمل الجمل وذهب إلى شيبيت . فلما وصل الى المكان الذى يؤدى الى الوادى مر بمكان به قاذورات ، وبفعل العدو الذى يكره كل خير إنزلق الجمل فزل وانكسرت رجلاه ، فلما حدث هذا بكى الشيخ بمرارة وحزن حزناً عظيما حتى أنه مزق ثيابه وغطى رأسه بالتراب لأن الجمل لم يكن ملكه ، وبكى ثم شكر الله قائلا : « أشكرك يا سيدى يسوع المسيح إله القديسين » وترك الجمل ملقى على الأرض وذهب إلى مغارة هذين الطوباويين وأعلمهما بما حدث

له والجمل فاصطحباه ووصلا إلى المكان وكان الشيخ يبكى وهما لايزالان بعيدين بعض الوقت عن الجمل .

ولما رأى القديسان الجمل ملقى على الأرض وقفا وصليا إلى الله ، ولما أقتربا القديسان من الجمل خاف ولمس الأرض بفمه كما لو كان يسجد لهما . ولكنهما أمرا الجمل أن يثبت على رجليه بقوة الرب يسوع ...

رفعا أعينهما إلى السماء قائلين : « يا إله أبينا القديس مكاريوس إسمعنا حينما نصلى إليك ياهب البشر » ، وفجأة وثب الجمل وأرتكز على رجليه صحيحاً وكأنه ما وقع قط ، فشكر الشيخ القديسين قائلا : « مبارك يسوع المسيح الساكن فيكما » .

ولما كانوا سائرين معاً فى الطريق رأى القديس دوماديوس وجه الشيخ مغبراً بسبب التراب الذى كان قد حفره على نفسه عند سقط الجمل ، فأخذ القديس دوماديوس طرف الثوب الذى كان يرتديه ومسح وجه الشيخ . وبسبب الأعجوبة التى رآها قد تمت على أيدى هذا القديس (إذ أصبح جمله صحيحاً) ، أمسك بيد القديس ووضعها على عينه المفقوده بإيمان عظيم ، كما لو كان يريد أن يتبارك به ، فلم تكد يد القديس تمس عينه حتى أبصر فى الحال ، فتعجب الشيخ الحمارس مما حدث إذا لم

يشف الجل لحسب ولكنه أبصر هو أيضا فى الحال لما وضع يده على عينه ويحمد الله على العطية التى أخذها .

أوصاه هذان القديسان الا يقول شيئاً لأحد ، وقالا له ثانية لاتظن أن الصحة عادت اليك بفضلنا لأننا خطاة ولكن هذا حدث بقوة المسيح . أما هو فبعد ما أحضر لهما أرغفة الخبز عاد إلى عمله فى النطرون ، ولما رأى زملاءه أن عينه مبصرة تعجبوا جداً وسألوه فى ذلك فأعلمهم أن تلاميذ الأنبا مكاريوس هم الذين شفوه وكان كل من يسمع يمجد الله .

ويضيف كاتب السيرة الشماس الراهب بيشوى قائلا :

« وأنا أيضا لما علمت بهذا بعد أن كانا قد تنيحا سألت القديس مكاريوس إذا كان الأمر كيف وقلت له . . يا أبى القديس علمت أن هذين الطوباويين قد فتحا عين أعمى ، هل هذا صحيح ؟ ، فقال لى : « نعم » ففلت : حقاً إنه عمل عظيم » فأجاب . « لا يابنى ليس هذا عملا أكبر من النعمة الكبيرة التى نالاها من الله لأنهما كانا أهلا للقوة التى كانت فى إيليا ويوحنا . أنهما لم يطلبا قط مجد هذا العالم الزائل بل المجد الذى كانا يرجوانه هو المسيح لأنهما كانا مثل شعلة نار تنألق كثيراً ، وحتى النفس الذى كان يخرج من فمهما كان ناراً مشتعلة ، وإذا ما فتحا فمهما ليصليا كان يخرج لهيب مضىء كالبرق .

الفصل السادس

نصائح القديسين

روى كاتب السيرة :

حدث مرة حينما كنت معهما أن قلت لهما : « لو كنتما فى القسطنطينية يا آبائى فبالتأكيد كنا نجدكم وليتم الملك ، ولكنهما أدارا وجهيهما وقالا بوداعة : « أين إذن روحك يا أخ حتى بدرت منك هذه الكلمة ؟ أنها بلاشك فى المكان الذى ذكرته الآن . ولقد قلنا لك عدة مرات يا أخ بيشوى إنه سواء أكنت حالاً معنا أو كنت فى مسكنك يجب أن تذكر دائماً اسم الخلاص الذى لسيدنا يسوع المسيح بلا انقطاع ، لأنه بالحقيقة لو كان هذا الاسم الأقدس فى قلبك لما فلت هذه الكلمة التى تكلمت بها الآن . .

« من الآن فصاعداً انتبه بالتأكيد إلى نفسك ولاتهمل الاسم الأقدس اسم سيدنا يسوع المسيح ، بل تمسك به بكل قلبك باستمرار حتى فى الآلام ، لأننا لو أهملناه نموت بالتأكيد فى خطايانا » ومن أقوالهما :

فلنفرغ من الدالة والمزاح والكلمات الباطلة التى تجعل

الراهب يخسر كل الثمار حسب الطريقة التى تعلمناها ، إذ كنا لانزال بعد فى سوريا حينما كان الناس يحاولون إسعادنا دون أن يتركونا نفكر فى خطايانا . لكن الغربة والسكوت بفهم واحتمال الشدائد هذه هى خصائص الراهب .

فالشدة تولد الصلاة فى طهارة والصلاة تولد مخافة الله والمحبة وهذا مايفتح الرجل لأنه لا جاه ولاغنى ولاقوة يتقبلهما الله ما لم يكن المسيح يسكن فينا ...

†††

الفصل السابع

زيارة القديسين

يختم الشماس الراهب سيرة القديسين فيقول .

سر الله أن يعطى نياحاً لخادميه وينقلهما من هذا العالم الزائل ومن ضيقاته ، وأن يدخلهما إلى موضع الراحة الأبدية المملوءة فرحاً وتهليلا ، ففى يوم عيد الغطاس المقدس إبتدأ الطوباوى مكسيموس أن يرقد وكان مريضا بحمى عنيفه ، فلما طال عليه المرض قال : « إصنعوا معى محبة وأدعوا أبى القديس مكاريوس ، وقد ذهبت ودعوته وبعد غروب الشمس سألنا عن الوقت فأخبرناه أنه نهاية النهار . قال انى ذاهب بعد قليل الى موضع راحتى .

ولما اقترب المساء أمرنا أبونا مكاريوس أن نشعل المصباح فأشعلناه . حينئذ فاضت روح الطوباوى مكسيموس إلى السماء وكان يقول :

وأرسل نورك وحقك يا إلهى ليهدياني إلى الطريق ، قوم طريق وإنقذنى من سلطان الظلمة فى الهواء ، أعدد خطواتى فى

طريقك حتى أذهب اليك دون عائق، لتكن رجاء قوتى يايسوع إلهى لأنك أنت نورى وخلاصى فمن أخاف ....

ورأى القديس مكاريوس صفوف القديسين وقد جاءوا ليأخذوه ، فقام القديس مكاريوس فى الحال وظل صامتاً ... وهكذا انطلق بفرح خارج الجسد وتنيح بسلام فى اليوم الرابع عشر من طوبة (١) .

---

(١) ذكرت مخطوطة دير البرموس لناسخها المتنيح القمص متياس البرموسى فى شأن رياحة القديس مكسيموس مايلى :
« اجتمعنا حول القديس مكسيموس لننظره فسمعناه يقول وقد خطف عقله، يارب ارسل لى ملاكك المنير ليأخذنى فى هذه الطريق التى لا أعرفها .
يا إلهى وخالقى خلصنى من قوات الظلمة الذين هم يجتمعون فى الهواء واصلح خطواتى فى هذه الطريق لأبلغ إليك باستقامة، وكن لى نعمة وقوة يا إلهى وسيدى لأنك انت رب النور ومخلص العالم » .
ثم سكت قليلا وقال قم بنا لنمضى من ههنا - ها الرسل قد أقبلوا يلتمسون أخذى من ههنا . وبعد قليل أبصر القديس مكاريوس جماعة القديسين وهم داخلون فقام مسرعاً من موضعه، ووقف على رجليه صامتا بوجه باش مستبشراً بما شاهده من القديسين، ومن نورهم إعطفاً السراج ، واما انا فلم ابصر شيئاً ، وقلت للقديس مكاريوس يا أبى هل اوقد السراج ؟ فقال اتركه الآن ؟ فلما عاينته قائماً فى الزاوية يصلى صامتاً قلت له اصنع محبة يا أبى القديس =

= واجلس لأستريح قليلا فقال لى أسكت يا ولدى الموقف الآن لايحتمل الكلام .
وأن الأب مكسيموس قال له أطلب اليك يا سيدى أن تقول لى من هم هؤلاء الناس الجلوس عن يمينى ، ولما قال هذا الوقت فقد النطق وأسلم الروح .
سألت القديس مكاريوس أنا والقس ايسيذورس أن يعرفنا خبرهم فقال انا أعتقد أنهم تلاميذ سيدنا يسوع المسيح .. وملاك يضىء كأنه نار وبيده سيف من نار - لئلا يتجاسر الذين هم ضدنا أن يأتوا إلى نفس القديس مكسيموس، وكان الملاك يطردهم من من قدامه ، وهكذا كان هذا الملاك يعمل فى الهواء أمام جميع القديسين .... »

ويقول القديس واضع السيرة :
« ولما دفنا جسده (مكسيموس) رأتينا إلى الغد رقد أخوه دوماديوس وكان مريضاً بحمى شديدة - ولما رأى القديس مكاريوس الكبير أنه مريض قال لى : « إجلس يابنى لكى تخدم الأخ وتأخذ بركته .. وفى الغد اشتد المرض على القديس دوماديوس، ولما بلغ الليلة الثالثة رأيته متعباً فقلت له : « أتريد أن أدعو أبانا القديس مكاريوس ، فقال « نعم » ، فذهبت ودعوته ، وإذا كنت سائراً معه فى الطريق وقف فترة طويلة ينظر نحو المغارة ثم التفت ناحية الشرق فظننته يصلى ، ولكنه

كان يتأمل خورس القديسين الذين كانوا يتقدمون روح البطريارى القديس دوماديوس . نظر إلى فوق نحو السماء وهو ينتحب باكياً ويقرع صدره قائلا : الويل لى لأنى لم أعد راهباً بالكلية » ، فكنت أتعجب وسألته ما الذى حدث فقال لى : « هيا بنا يا إبنى فقد تنيح القديس دوماديوس .

فأخذنا جسده المقدس وقمنا بواجبات الدفن ، وكانت رياسته فى السابع عشر من طوبه .

وقد أعلن القديس مكاريوس للقديس ايسيذوروس الفس أن الطغمات الذين جاءوا ليأخذوا نفس دوماديوس هم الذين جاءوا لأخذ روح أخيه وكان هو أيضا معهم .

وجاء كثيرون وسكنوا ذلك الموضع حول مغارتيهما وسموا ذلك الموضع دير الروم ، دير برموس بى روميوس» . وبنى القديس مكاريوس كنيسة عظيمة فى ذلك الموضع وهى أول كنيسة بنيت فى البرية ، كما كان القديسان مكسيموس ودوماديوس أول من تنيح من الرهبان فى الإسقيط . وهذه الكنيسة الكبرى كان الأنبا ايسيذوروس قسيسها والأب الراهب بيشوى كاتب سيرتيهما شماسها والمرجح أن رياستهما كانت بعد سنة ٣٨٠ م . بركة صلواتهما تكون معنا آمين ؟

أودع بدار الكتب تحت رقم ٣٤٥٠ لسنة ١٩٦٩